

مجلة أنثروبولوجية (الأوبان) المجلد 19 العدد 02 2023/06/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

تطبيق الموريسكيين لشعائر الحج في ضوء الدرس الأنثروبولوجي الديني

Moriscos application of hajj rituals through a religious anthropological lesson

جلولي فاطمة*

جامعة أبي بكر بلقايد_ تلمسان، الجزائر

benabdelkader1300a@gmail.com

تاريخ القبول: 2022/10/08

تاريخ الاستلام: 2022/09/08

ملخص:

الإسلام هو أساس قيام الكثير من الحضارات و المجتمعات الراقية الكريمة و الإنسانية الخيرة. فالدين ظاهرة ثقافية إنسانية لها دور مهم داخل النسق الإجتماعي،فهو يؤثر بشكل كبير في ثقافة المجتمع و أفراده ،و هو يعكس مختلف العلاقات الاجتماعية التي تجمع بين الأفراد.والأنثروبولوجية الثقافية تتناول دراسة مختلف التأثيرات التي يمارسها الدين في ثقافة الإنسان.

وفي السياق ذاته يحاول هذا المقال رصد تمسك الموريسكيين بشعائر الحج في ضوء الدرس الأنثروبولوجي الديني الذي تأكدت مناسكه من خلال بعض الشهادات الوصفية الفريدة، التي تنضح بقيمتها الأدبية وبمحتواها التاريخي والشعائري.

الكلمات المفتاحية: الموريسكيون ، المسلمون المنصرون، المسيحيون الجدد، أقلية، إسبانيا، محاكم التفتيش،تراث أدبي، شعائر الحج

Abstract:

Islam has established the emergence of many noble civilizations and societies,full of goodness and humanity,over time.religion is a human cultural phenomenon that plays an important role within the social system.It casts agreeat shadow over the culture of society,as it reflects the various social relationships that

* المؤلف المرسل: جلولي فاطمة، الايميل: benabdelkader1300a@gmail.com

bind individuals to each other.under this field,cultural anthropology deals with the study of the various influences that religion exerts on human culture.

We try and aim through this article to monitor the extent to which the moriscos adhere to the rituals of hajj in the midst of a religious anthropological lesson whose rituals have been confirmed by some unique descriptive testimonies that are full of their literary value and historical and ritual content.

Keywords: Moriscos, evangelized muslims, new Christians, minority, Spain, the Inquisition, literary heritage, hajj rituals.

مقدمة:

شهدت المجتمعات عبر العصور صراعات دينية دموية كبيرة، ولعل أشجعها تلك التي مارستها محاكم التفتيش المسيحية بإسبانية ضد المورسكيين بغية تنصيرهم و تعميدهم ، فالصراع الديني كغيره من أشكال الصراعات الأخرى "يعكس مظهرًا من مظاهر الصراع الثقافي. فكلما كبرت الجماعات الدينية و كثر عددها، كلما اشتدت مظاهر الصراع الديني بينها" (مدبولي، 1979، الصفحات 214-215).

استمرت المجموعة الموريسكية في الدفاع عن تقاليدها وعاداتها الإسلامية، محافظة عليها محافظة حية حتى لحظة الطرد النهائي، واستمرت في ممارسة الإسلام بشكل سرّي وفقاً لإمكاناتها، معتبرة احترام هذه الشعائر والطقوس (كالامتناع عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير) شرطاً لإنقاذها، وعلامةً على اتحادها مع المجموعة الإسلامية (كاردياك، 1983، الصفحات 30-31).

لقد بتنا نعرف ذلك، بفضل ما ذكره مؤرخو الطرد والوقائع الكثيرة التي سُردت في قضايا دواوين التحقيق التي تشهد بمحافظه الموريسكيين الأندلسيين على الممارسات الدينية المنسجمة مع وضعيتهم (كاردياك، 1983، صفحة 32)، تلك كانت أهم اللحظات السعيدة بالنسبة للمجموعة الموريسكية، التي شعرت بانتمائها إلى طائفة متميزة عن المسيحيين، تترجم موقفها المعارض في العادة برفضها للممارسات الدينية المفروضة عليها، وقد ظهر ذلك بأشكال عدّة، سواء بموقف معادٍ في بعض الحالات، أو غالباً تحت شكلٍ من أشكال الحيل والمواريات التي تهدف إلى إلغاء تلك الممارسات الاحتفالات الدينية، أو بشكل أبسط مرده عدم الرغبة في القيام بتلك الطقوس، وقد ظهر ذلك جلياً في أكثر ملبسات الحياة التي يحتفل بها دينياً كالولادات أو الزواج أو الدفن (كاردياك، 1983، الصفحات 33-36). أمّا الحج إلى

مكة، فقد تأكدت مناسكه من خلال بعض الشهادات الفريدة، التي تعكس في الواقع تطبيق الموريسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، فالكثير منهم تطلع إلى ممارسة هذه الفريضة، التي من شأنها أن تغسل جميع الذنوب.

وفي هذا السياق قد يتساءل الباحث في هذا التراث عن حقيقة تطبيق الموريسكيين الأندلسيين لهذه الفريضة العظيمة، واستمرارهم في محافظتها عليها قبل وبعد قرار الطرد النهائي؟ وكذا طبيعة الكتابات الموريسكية التي عُيّنت بتسجيل شعائرها الآخذة في الضياع والتلاشي في وسط متأزم للغاية؟ في البداية لا بد أن نشير إلى أن صعوبة أداء هذا الواجب الديني، نتيجة بعد الديار الأندلسية عن المشرق، وعسف محاكم التفتيش (كاردياك، 1983، الصفحات 114-115)، قد منع الكثير من الموريسكيين الأندلسيين عن القيام به، ولا نعثر إلا على القليل النادر من الشواهد التي تبين قيام الموريسكيين بهذه الفريضة، ومؤلفات الموريسكيين التي تعدد فرائض المسلمين الدينية، قد ذكرت وشرحت مع هذا فريضة الحج بالطريقة نفسها التي شرحت بها الصلاة والصوم والزكاة (كاردياك، 1983، صفحة 33).

ومن الشهادات الفريدة التي نظفر بها في هذا الشأن، رحلة "منشأ الأخبار وتذكرة الأخيار" لعبد الله بن الصباح الأصبحي (شيخة، 1991، صفحة 87)، وأناشيد (Alhichante) الحاج بوي مونتون (مونتون، 2003)، كما أكد الشهاب الحجري ذهابه إلى الحج (عام 1046هـ/ 1636م) وتوقفه بمصر، أين أُلّف رحلته "رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب"، ليثبت فيها مناظراته للمسيحيين واليهود سنة (1047هـ/ 1637م)؛ يقول الحجري في مختصر رحلته: «..ولما رأني عازما على الرجوع.. (بياض بالأصل) (إلى) المغرب التي جئنا منها لأداء الفرض، وزيارة أجلّ من ظهر على وجه الأرض، والوقت ضائق، كتبنا له منها نسخة، كما كان في غرضي، أمرني أن اختصر منها نبذة لطيفة، ونذكر ما وقع لي من الكلام في الدين مع النصارى» (الحجري، 1987، صفحة 19) ومن ذلك زيارة المسلمين لمكة؛ قال: «..وقد وقع كلام مثل هذا في مدينة برضيوش مع القاضي المسمى قَيْرُضٍ»، ..قال لي: «يا فلان تعجبت منك، كيف أنت على دين المسلمين»، قلت له: «لماذا» قال: «لأن عندنا في كتبنا أن المسلمين يزورون مكة ليروا نبيهم في الهواء في وسط حلقة حديد في الهواء، لأن الحلقة في الهواء في وسط قبة حجر المغناطيس، والمعروف منه أنه يجذب الحديد، والجذب في القبة على حدّ سواء من كلّ جهة، وتبقى الحلقة في الهواء بنبيكم، والمسلمون يعتقدون أن ذلك معجزة لنبيهم»، قلت له: «هل يجوز في دينكم لأحد أن يكذب، وإن كان بنية تقييح دين غيره

لتحسين دينه وتزيينه لأهل ملته» قال: «لا يجوز ذلك» قلت: «النصارى الذين قالوا ذلك أذنبوا ذنبًا كبيرًا في دينكم»، قال: «كيف ذلك» قلت: «لأنّ النبي _ صلى الله عليه وسلم _ ليس هو بمكة، وليس هو في حلقة الحديد، بل هو مدفون في المدينة، وبينها وبين مكة عشرة أيام، والمسلمون يزورون الكعبة لأنّها دارمباركة بناها سيّدنا إبراهيم _ عليه السّلام _» (الحجري، 1987، صفحة 79).

وإذا كان الحجري قد أدى فريضة الحج بعد صدور قرار الطرد النهائي، إلى جانب ابن الصّباح الذي أداها في سنّي شبابه قبل ظهور المشكل الموريسكي، وأملاها من ذاكرته في الفترة التي كفل فيها النصارى للمدجنين الأندلسيين حرّية الممارسة الدينية (شيخة، 1991، صفحة 88)، فإنّ ممارسة الموريسكيين الأندلسيين لفريضة الحج، قد تأكّدت مناسكها _ قبيل الطرد _ من خلال المقاطع الشعريّة (Alhichante) المنسوبة للحاج بوي مونثون، والتي تعكس في الواقع قصة حجّ أحد الموريسكيين الشجعان من أراغون في أواخر القرن السادس عشر أو أوائل سنّي القرن السابع عشر (مونثون، 2003، صفحة 33)، عندما كان الموريسكيون يدفعون إلى التنصّر بطريقة مخجلة (مونثون، 2003، صفحة 27).

أولاً: بعض المظاهر الدينية في أناشيد الحاج بوي مونثون

يبدو "بوي مونثون" من خلال الرّحلة صاحب ثقافة دينيّة متوسطة، تبعده كلّ البعد عن صفة العالم المدقّق، ولعلّ السّبب في ذلك أنّه لا ينتسب إلى طبقة العلماء أو الفقهاء، وهو ما نلاحظه أيضاً في رحلة "المنشاب" لابن الصّباح (شيخة، 1991، صفحة 87) كما أنّ أسلوبه وما فيه من تعثّر، واستطراداته وما فيها من خلط، تجعله بعيداً عن هذه الصّفة، بيد أنّ ذلك لا ينقص شيئاً من قيمة الرّحلة التي نظمها في تسعة وسبعين مقطعاً، (يتضمن كلّ مقطع ثمانية أبيات) (مونثون، 2003، صفحة 26) شكّلت قصيدة وصفية مهمّة ليس لقيمتها الأدبية فحسب، بل أيضاً لمحتواها التاريخي والشعائري الأنثروبولوجي، ذلك لأنّها تقدم لنا صورةً عن مستوى الثقافة السائدة في ذلك العصر، وخاصّة في الوسط الموريسكي الذي كانت تختصر فيه (شيخة، 1991، صفحة 87).

ويبدو أنّ غاية الناظم من إملاء رحلته بعد العودة واختصارها في قصيدة وصفية، هو إخبار إخوانه المسلمين الموريسكيين الذين حملهم الإسبان على التنصّر، بما في أرض الله من البلاد والعمائر والإسلام من أمة محمّد صلى الله عليه وسلم، وهي الغاية نفسها التي صرّخ بها صاحب رحلة "منشاب الأخبار وتذكرة الأخبار"، الذي أراد لرحلته أن تكون كالألة التي يعلق بها كلّ شيء وبالتالي تلتقط كلّ الأخبار، أمّا كلمة

(تذكرة) فاستعملها ابن الصّباح في معناها الديني لأنه أشار في مقدّمة رحلته أنّ غايته من إملائها من ذاكرتة واختصارها في كتاب، هو إخبار المسلمين المدجنين الذين بقوا في الأندلس بعد سقوطها في يد النصارى بما في أرض الله من البلاد والعمائر والإسلام من أمّة محمّد صلى الله عليه وسلم" (شيخة، 1991، صفحة 87). فالتعريف بأرض الإسلام المترامية الأطراف لتعزيز الرّوح الدينية في نفوس الموريسكيين والمدجنين بإسبانيا، غاية قصد ناظم الأناشيد وصاحب الرحلة بلوغها (شيخة، 1991، صفحة 88)، ولئن خلت أناشيد الحاج بوي مونثون من التواريخ التي تُعين على ضبط الزمن المحتمل للرحلة والأمر نفسه نلحظه في رحلة ابن الصّباح (شيخة، 1991، صفحة 88)، فإنه بالاعتماد

على ميول العصر الذي عاش فيه الرجل واتجاهاته، والمعلومات التي يقدمها من خلال الأناشيد، يمكننا أن نُقدر على وجه التقريب العصر الذي كتبت فيه (مونثون، 2003، صفحة 29)، ويظهر ذلك من خلال وضعية البلدان التي زارها كازدهار القاهرة وزيارة (الغورية) أو مسجد (الغوري) بزخارفه الحديثة، المشيّد بالضبط في النصف الأوّل من القرن السادس عشر (مونثون، 2003، صفحة 30)، والإشارة أيضا إلى تاريخ محدد (وهو اليوم الثاني من ميلاد المسيح) لدى خروجه من تونس، كما أنّ وصوله إلى الإسكندرية كان في اليوم الثامن عشر يعني أنّه وصل يوم 12 يناير، وشعائر الحج أقيمت في النصف الثاني من شهر أبريل أما عيد الأضحى فقد وافق أواخر شهر أبريل، ومن المعلوم أنّ عيد الأضحى يقام دائما في اليوم العاشر من ذي الحجّة، وعليه فإنّ رحلة بوي مونثون كانت في العاشر من ذي الحجّة الذي يوافق أواخر شهر أبريل، والسنة التي حصل فيها هذا التوافق خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر كانت سنة 1572م، وتكررت الظاهرة قرابة سنة 1603م وهذه السنة الأخيرة هي المحتملة لما نستخلصه من بعض المقاطع، وهو ما تؤكّده كلّ ظروف الزمان والمكان التي تحيط بالمخطوط (مونثون، 2003، الصفحات 31-32).

ثانياً: النزعة التمجيدية والمنهج التعليمي في الرّحلة الحجازية

لقد أملى الحاج بوي مونثون تفاصيل رحلته إلى الحجاز في أرض طال عهد خروجها عن دار الإسلام مع بقية مسلمة فضلت البقاء في وطن الأجداد، ولكنها ظلت مهذّدة في قيمها الدينية والحضارية، ما حتّم عليه الاضطلاع بهذه المهمة النبيلة تجاه أبناء مجموعته، نظرا إلى تجربته وزاده المعرفي الذي كان لا يستهان به بالنسبة إلى المستوى الثقافي الذي أصبحت عليه هذه الأقلية، فالجهل بتعاليم الإسلام وما يترتب

عليه من خطر التنصّر الاجباري أو الاختياري، كان من أكبر الأخطار التي كانت تهدّد هذه المجموعة، لذا عمد صاحب الرحلة إلى التأكيد على بعض المظاهر الدينية التي كانت الغاية منها تمجيد الإسلام وتعزيزه في نفوس الموريسكيين الأندلسيين باتباع منهج تلقيني تعليمي (شيخة، 1991، صفحة 88).

1 المظهر التمجيدي:

لقد أبحر بوي مونثون من بلنسية وزار تونس والإسكندرية والقاهرة وصولاً إلى مكة (شيخة، 1991، صفحة 88)، حيث استطاع العودة إلى وطنه وكتابة مذكراته عن الحج وتعميمها على إخوانه الموريسكيين، متخذاً لذلك اسماً مستعاراً هو الحاج "بوي مونثون" (مونثون، 2003، صفحة 22)، كعادة كلّ الكتاب الموريسكيين، الذين ظلوا في إسبانيا.

وكان الحاج بوي مونثون ينوّه في كلّ بلد يمرّ به، بتبهر عمرانته «النشيد: 26 و 27»، وأشهر آثاره «النشيد: 32 و 33»، ووفرة خيراته، وجمال طبيعته، وعظمة سلطانه، وأخلاق أهله، وتعداد سكانه.. خاصة في الأماكن المقدسة كمكة والمدينة، ولا يقتصر ذكر الحاج بوي مونثون على الأماكن المقدسة لدى المسلمين فقط.. كذكره لجبل أبي قبيس حيث انشق القمر، وغار حراء، وغار ثور «النشيد: 63، 64»، والوادي الذي شهد انهزام أصحاب الفيل، ورفع النبي إدريس قبل الطوفان _ حسب موريسكيينا «النشيد: 67»، بل يعمد أيضاً إلى ذكر الأماكن المقدسة لدى النصارى واليهود.. كذكره لشجرة التين المباركة التي حضنت في جوفها مريم ووليدها اثر ملاحقة اليهود لها «النشيد: 30، 31»، وجبل طور سينين حين كلم موسى ربه «النشيد: 79».

وفي نطاق هذه النظرة التمجيدية ما فتى صاحب الرحلة يُذكر إخوانه المسلمين بأهم فترات التاريخ الإسلامي الزاهية وبأعظم رجالاته، مُعدّداً الأماكن المقدسة في كلّ مدينة يمرّ بها كأضرحة الرّسل والأنبياء، ومزارات الصحابة.. كضريح وبيت خديجة بنت خويلد «النشيد: 60، 61»، وبيت أبي بكر الصديق، وبيت علي الذي يصفه بالشّجاع المحنك «النشيد: 62». لقد كانت هذه الأمكنة محلّ زيارة الحجاج بالإضافة إلى بيت أبي طالب، والمكان الذي سقط فيه الحجر، وضريح فاطمة، قبل أن تخدم في نهاية القرن الثامن عشر لأنها عُدّت من البدع، كما زار قبر أبي بكر وعمر الفاروق في المسجد النبوي «النشيد: 69» (مونثون، 2003، الصفحات 93-94)، وكذا الأتقياء منوّهًا بفضلهم وحسن إيمانهم.. كقبر الإمام الشافعي «النشيد: 28»، ومسجد نفيسة بنت الحسين «النشيد: 29».

لقد نظر الحاج بوي مونتون إلى العالم الإسلامي باعتباره وحدةً منسجمةً، لا تنقسم عرقياً أو سياسياً أو جغرافياً، وإنما تنقسم مذهبياً حسب المذاهب السنّية الأربعة التي ينوّه بها جميعاً، وهي النظرة التي يتبناها ابن الصّبّاح رغم ما يبدو عليه من تعصب لقبيلته اليمنيّة، بل ويرى الاختلاف بينها رحمة للمسلمين، وأنّ كلّ الأحكام في هذه المذاهب السنّية هي مستنتجة من محكم القرآن ومحكم الأحاديث، فلا مجال لدحض ما ذهبوا إليه وإن اختلفوا.. كما قسّم العالم الإسلامي تقسيماً ثانياً حسب القراءات السبع، حيث نوّه بكلّ تلك القراءات مذكراً بقراءة أهل المغرب وتشبّههم بمذهب مالك (شيخة، 1991، صفحة 89).

ويقدّم بوي مونتون دراسةً جغرافيةً كاملةً عن تقسيم المذاهب الأربعة في كلّ جهات العالم الإسلامي، فيذكر «بعد النشيد التاسع والسبعين» الدول التي كانت تدين بالإسلام في بداية القرن السابع عشر بأسمائها العربيّة؛ قائلاً: «.. هذا هو الترتيب الذي تتبعه المذاهب الأربعة في الصلاة بمكة، فأول المذاهب مذهب الإمام الشافعي (رضي الله عنه) ومن أتباعه: الإسكندرية ونواحيها، والقاهرة، وأرض مصر، والصعيد والتي تشكل ثلاثة أشهر من المشي على النيل الفوقي، فأرض كنعان وحلب، والشام والقدس، ومكة وبغداد، وكثير من بلاد العجم (الفرس) والجراسية، وكل أراضي أينا آدم (عليه السلام).

أما أتباع أبي حنيفة (رضي الله عنه)، فهي تركيا، وباقي بلاد الفرس، وإمبراطورية القسطنطينية وبلاد رومانيا (جزء من الإمبراطورية العثمانية) وبلغاريا، وبلاد التتار، ومملكة خزران (أندرينوبليس)، وكل أرض التتار وأرض ليدول، وكل أرض الملك لنك حتى بلاد المسلمين حيث تطلع الشمس.

أما أتباع الإمام مالك (رضي الله عنه)، فهي بلاد الملك (ابن ديرة) في ناحية مكة، ومملكة الملك (كينوا بني). ومملكة عكوم الذين يوجدون في الجزء الغربي، وكلّ دول شمال أفريقية من الإسكندرية إلى أسفل وكلّهم من العرب.

وأتباع ابن حنبل (رضي الله عنه) يوجدون في أرض العراق، واليمن والبعجة، وبلاد السند والهند والهند الوسطى، وبلاد (تايمور بيك)، وبلاد تومبوكتو والحبشة، ومملكة كلكوتا، وجزء كبير من الصحراء، وبلدان السود التي منها يأتي ذهب التبر، من هؤلاء كثير ممن هم على مذهب الإمام مالك.. هنا تنتهي أناشيد الحاج بوي مونتون، والحمد لله رب العالمين. وردت هذه الجملة مكتوبة بالعربية في المخطوط الأصلي، وكلّ الكتاب الموريسكيين الأندلسيين فإنّ هذا الحاج يكتب بالعربية تلك الكلمات المتعلقة

بالمناسك والأمر الدينية، فهو يستعمل كلمات: الدين، الحج، البركة، الأنبياء، الجنة، الصلاة، التسييح، وباب السلام بالعربية بدل الألفاظ التي توافقها بالإسبانية. (مونتون، 2003، صفحة 26، 131، 133).

2المظهر التعليمي:

لقد أدرك صاحب الأناشيد صعوبة الحياة الروحية في الأندلس بالنسبة للموريسكيين، كما أدركها ابن الصبّاح بالنسبة للمدجنين (شيخة، 1991، صفحة 89)، لذا حرص على تعليمهم الدين، أو على الأقل كان يذكّرهم بأهم تعاليمه وأركانها كالحج ومناسكه..

وأول مظهر تعليمي يبدو لنا من خلال هذه الأناشيد؛ هو تذكير المسلم بواجباته الدينية كالصلاة والزكاة والحجّ، وبالنسبة إلى هذا الركن الأخير، قام صاحب الرحلة بوصف مراحل الحج وشعائره الأساسية بتفصيل وتوضيح كبيرين، «النشيد التاسع والخمسون»:

زرت الكعبة

وقمت بالإحرام

وزرت الحجر الأسود والمقام

وبئر زمزم

ذلك الماء الحقيقي

الذي يشفي ويغسل الذنوب والنسيان (مونتون، 2003، صفحة 86)، وكأنّه بذلك أراد أن يضمّن رحلته أغلب المعلومات التي يحتاجها المسلم في عقيدته وعبادته ومعاملاته، فلا نكاد نجد نشيداً يخلو من استشهاد أو شرح أو تعليق، تيسيراً للفهم وتقريباً للأذهان.

إنّ دقة وصف الحاج الموريسكي لشعائر الحج، تجعل القارئ يستشعر عظمة الحج، الذي يقوم به المسلمون الوافدون من كلّ بقاع المعمورة، ومن الصّعب أن نجد لدى الرّحالة المعاصرين (مونتون، 2003، الصفحات 18-19) الدقة نفسها التي يصف بها بوي مونتون الحج وشعائره.. كالوقوف بعرفة مثلاً «النشيد الخامس والستون»:

في جبل عرفة

حيث تجمعت الجيوش

والتقى أبوانا

آدم وحواء
حين أخرجنا من الجنة
بسبب معصيتهما
وفي نفس هذا الجبل
رزقا بنات وبنين (مونثون، 2003، صفحة 97)، والمبيت في منى «النشيد السادس والستون»:
وفي منى
وفي المكان نفسه
حيث كان إبراهيم
يود ذبح ابنه
وفي المكان نفسه
الذي خرج فيه العدو
ليعتدي على إسماعيل
وأبيه إبراهيم الخليل (مونثون، 2003، الصفحات 100-101).
وتبدو النزعة التعليمية في أناشيد بوي مونثون كما هي في رحلة ابن الصبّاح من الصور التي رسمها
بأسلوب حيّ، وحلّى بها كتابه للأماكن المقدسة كالحرم المكي «النشيد الواحد والأربعون»:
هكذا وصلنا إلى مكة
هذه المدينة المباركة
فأبواها بركة
وجدرانها رحمة
وسقوفها ناصعة
وهي كلها مباركة
إذ كلّ من يزورها
يفوز بالمغفرة (مونثون، 2003، صفحة 59)، والكعبة الشريفة «النشيد الثالث والخمسون»:
كيف أحدثكم عن الكعبة

وعن جلالها العظيم

الذهب والفضة والتراء

لا يعدّ ولا يحصى

ستار رائع

من حرير مزركش

بالفضة الرقيقة

وباب مملوء بالبهاء (مونتون، 2003، صفحة 72)، والمسجد النبوي بالمدينة «النشيد الثامن والستون»:

ماذا أقول عن المدينة

وتاريخها السعيد

مدينة نبينا الشريف

المدفون في مسجدها

وبجانبه قبران عزيزان

صاحباه في الحياة

وصاحباه في الممات (مونتون، 2003، صفحة 108)، والمسجد الأقصى ببيت المقدس «النشيد السادس

والسبعون»:

كما أسفت لعدم زيارة القدس

أقول بيت المقدس

البيت الذي كلّه نور

وبركة وفضل كبير

والذي يصبو إليه كل العالم

فقد بلغ من الكمال

أن المسلمين والمسيحيين

يتوجهون إليه طلبًا للمغفرة (مونتون، 2003، صفحة 115).

غير أنّ قطع صلة الموريسكيين بالموارد الثقافية والشرعية التي يستقون منها علوم دينهم بسبب الاضطهاد، قد سبب لديهم جهلاً واضحاً في أبسط الأمور، ونلمس ذلك جلياً من الأخطاء الشرعية والتاريخية التي وقع فيها الحاج بوي مونثون صاحب الأناشيد (مونثون، 2003، صفحة 7) .. كجهلهم مثلاً بحقيقة مكان وجود قبر السيدة فاطمة «رضي الله عنها»، ذلك أنها دفنت بالبقيع وليس بجوار قبر النبي صلى الله عليه وسلم، «47 النشيد السبعون»:

وعند أقدام النبي

يوجد قبر زوجة علي

فاطمة ذات الفضيلة

وذات المجد والإلهام

بنت النبي المختار

والتي نرجوا

أن يكون الدعاء لها

وسيلة لنا صالحة. (مونثون، 2003، صفحة 109)، ولعلّ قبرها كان كذلك في زمان الزيارة، ثمّ نقل فيما بعد! وكذلك هي الحال بالنسبة لقبر الإمام مالك (رضي الله عنه) «النشيد الواحد والسبعون»:

وإلى جواره

خارج الغرفة

بداخل المسجد

يوجد قبر

ذلك الرجل المتألّم

إمامنا مالك

الذي يعد الإمام الأكبر

هنا في كلّ الغرب الإسلامي (مونثون، 2003، صفحة 110).

لقد ألح ابن الصبّاح في مؤلّف رحلته على وجوب معرفة وحدانية الخالق، والإيمان به بدون تقليد أو لبس أو شكّ، فلا بد للمرء أن يصل إلى هذه المعرفة بنفسه دون إعانة من أحد (شيخة، 1991)، أمّا

بوي مونثون فقد ألحّ في المقابل على ضرورة الاعتقاد بالحشر والبعث، وأنّ أشرط السّاعة حقّ واجبة الحدوث «50 النشيد السابع والسبعون»:

خاصّة أن هناك يوجد وادي اليبابات

الذي حسبما جاءنا

سيكون محشرنا

حيث نبكي كلّنا

وبكلّ أسى وحسرة

أخطاءنا وذنوبنا

ومن لم يعبد الله

ما عسى المذنب أن يفعل.

«النشيد الثامن والسبعون»:

وهناك يجتمع

الرجال والنساء

ونحاسب على كلّ أعمالنا

ولن يظلم أحد

إذ سننال

الحساب العادل

وحسب أعمالنا

فإننا سننال جزاءنا. (بوي مونثون: المصدر السابق: 118، 119).

ثالثًا: الغربة والحنين

لم يكن الحنين إلى الديار المقدسة وليد هذا العهد الأخير، لكنه يكاد يكون أكثر حدّة وتميزا في هذه المرحلة (طحطح، 1993، صفحة 297)، ذلك أنّ الواقع الأندلسي لم يعد يستغرق الموريسكي الذي بات غير مقتنع بجدوى الاندماج فيه! حيث أصبح يحلم في حنينه المررد بعالم بديليكون أكثر طمأنينة وسكينة. (طحطح، 1993، صفحة 297، 298، 315)

لقد كانت الرحلة إلى المشرق، فرارا من الواقع المتردي، ورمزًا للانطلاق والتحرر نحو الجذور، نحو التطهر والخلاص، الذي لم يعد هناك من سبيل إليه إلا بالرجوع إلى المنبع الروحي، وطلب الغفران (كحلٍ بديل)، كما أظهرت الرحلة إلى مكة مدى اليأس الذي تمكن من النفوس والأمل الذي خبا في القلوب، بعد أن تقرر مصير الأندلس، وتبددت ذكراها، كتبدد حلم استعادتها، أو إيجاد منقذ لها. إنَّ حنين الموريسكي إلى الديار المقدسة، هو حنين إلى العهود والأزمنة المرتبطة بها، حنين إلى العهد القديم، عهد النبوة والديمومة، عهد الإشراق والأنوار، الذي لا تلحقه يد البلى والفناء، لذلك نستشف من هذه الأناشيد إحساسًا قاهرًا بالحثمية الزمنية، والصلابة والتحول «النشيد الرابع والسبعون»:

زرنا كثيرًا من الأماكن
المقدسة المباركة
في مكة والمدينة
في الجبال والري
حيث ظهرت معجزات
في الأزمنة الماضية
ما يطمئننا

هذا ما وجدنا (مونتون، 2003، صفحة 114).

هكذا يمضي الحاج الموريسكي في وصف توتره الدائم، وأشواقه التي لا تنضب، نحو تحقيق راحة نفسية، بعد أزمة خانقة يستشعرها، فيحن فيها حنينًا ضارغًا إلى الرسول، الذي التجأ إلى حماه، متوسلاً قربه وشفاعته، ليحقق النجاة «النشيد الخامس والسبعون»:

يعلم الله
حقيقة عمق حزني
عندما غادرت
تلك الأرض المباركة
وأنا أودع قبر الرسول
ازداد شعوري

بأن الحياة والموت سواء

بعد هذا الأسف العميق (مونتون، 2003، صفحة 114).

إنه شوقٌ أسر إلى بديلٍ آخر، كالمعجزة «النشيد الرابع والسبعون» أو استعادة (زمن النبوة والصفاء الروحي) ولو حلماً وصورة (طحطح، 1993، صفحة 235، 272، 295).
ومما أذكى جذوة الحنين والأشواق المطلقة إلى هذه الأزمنة والأمكنة الرمزية فيما يبدو، هو إدراك الموريسكي لمحاولة الاجتثاث الحضاري لآخر بقية مسلمة، سعت لمواصلة انتسابها إلى الشرق في إسبانيا الكاثوليكية، وهذا ما جعله يصّر بإلحاح على عرض صورة إشعاعية، وروحية مثيرة للإسلام «النشيد الثالث والسبعون»:

أقول لكم إني رأيت أيضا
شيئاً يدخل البهجة
رأيت نور النبي
يصعد في السماء
والكلّ دون استثناء
كانوا يهتفون بالحمد والثناء
طالبين المغفرة

يوم الحشر العظيم (مونتون، 2003، صفحة 114).

ومن ثمّ ندرك إقبال بوي مونتون وابن الصبّاح وحتى الحجري.. على وصف اتساع رقعة الإسلام، بحماسة فيها الكثير من التمجيد والتعظيم، يقول صاحب المختصر: «والحمد لله الذي أعطانا (واشْرَحْنَا) بعمارة أكثر الدنيا أهما للمسلمين، وأنهم الذين لا يتبدل ملكهم إلى تمام الدنيا» (الحجري، 1987، صفحة 98).

رابعاً: بعض القضايا الدينية في رحلة الحاجين ابن الصبّاح والشهاب الحجري

1- في قضية الجهاد:

لقد تعرض كلٌّ من ابن الصبّاح والحجري لقضية الجهاد، فالأول فاضل بين الجهاد والعبادة ليمسك في الأخير بوجوب تفضيل الجهاد على العبادة (شيخة، 1991)، بل يذهب إلى أنّ من فضّل العبادة على

الجهاد، وتسبب بذلك في ضرر للمسلمين فقد أذنب، ويستشهد في هذا الصدد بأسطورة راجت وتتمد مفادها أنّ ضياع الأندلس راجع إلى تخلي المنصور الموحدي عن الجهاد والملك لابنه الصغير محمد، وهجرته إلى الشرق للعبادة والمجاورة (شيخة، 1991)، وبأسف ابن الصبّاح لما فعله المنصور الموحدي، مؤكداً أنّ "عدل السّلطان ومقاومة البدع والجهاد في سبيل الله وحماية أعراض المسلمين أفضل من عبادة سبعين سنة" (شيخة، 1991). أمّا الحجري فيرى أنّ المسلمين مأمورون بالجهاد للكفار والمشركين، قوله تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (64 سورة التحريم: 09) فالمسلمون منصورون من الله بالجهاد للكفار وبتركه يبتليهم الله فيما بينهم لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ما تواطأت قوم على ترك الجهاد إلا ابتلاهم الله فيما بينهم» لا يورده السيوطي في الجامع الكبير. وقد شاهدنا شيئاً من ذلك" (الحجري، 1987، صفحة 98)، ولا يفوت الحجري أن ينوّه بمن قاموا بفريضة الجهاد حقّ القيام، وهم السّلاطين الفضلاء العظماء العثمانيون التركيون" (الحجري، 1987، صفحة 99).

2- في قضية العدل الإلهي:

يرى ابن الصبّاح أنّ ضياع الأندلس هو ضربت من العدل الإلهي، فأهل الأندلس "منعوا الرّكاة وضيعوا الصّلاة، وارتكبوا المعاصي، وتعدّوا حدود الله وضيعوا الشّرع، فسلط الله عليهم عدوهم وسلب منهم بلادهم، فلمّا تبدل أهل الأندلس بدّل الله النعمة عليهم نقمة، وهذه النعمة منه عدلٌ محض كما كانت النعمة منه قبل ذلك فضلاً صرفاً، وقد فعل الخالق نفس الشيء مع آدم عندما أذنب إذ أخرجه من جنّة السّماء، وبما أنّ أهل الأندلس أذنبوا كجدهم فقد وقع طردهم من جنّة الأرض، ويدعم صاحب الرّحلة قياسه هذا بوصفه لأهل طرابلس، فالله بلاهم بالجوع والخوف لكثرة ذنوبهم، فهم والحالة تلك يشبهون أهل مكة عندما أذنبوا ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (سورة النحل: 112)؛ (شيخة، 1991).

3 - في قضية بقاء المسلم تحت حكم النصارى بالأندلس:

لقد أفتى علماء العدو في هذه القضية، واعتبروا البقاء في دار الكفر محرماً مع القدرة على الخروج، لذلك يتجه ابن الصبّاح بخير الدعاء للمسلمين المتخلفين بالأندلس تحت الذمة، وأن يعفو الله بمّنه وكرمه على من كان قادراً منهم على الخروج ولم يخرج، كحاله هو! فقد جال معظم أصقاع العالم الإسلامي، ليعود في نهاية المطاف للعيش في وطنه السليب تحت حكم النصارى، فالبقاء في بلاد الأندلس

بالنسبة لأهل الدجن القادرين على الخروج هو ذنب في نظره، ولكنه ذنب مغفور من ربّ رحيم (شيخة، 1991، صفحة 91)، إنّ إشكالية [المسلم العاصي والشعور بالذنب]، نستشعرها أيضاً في أناشيد الحاج بوي مونتون، الذي سعى بدوره إلى التطهر من أردان الذنوب من خلال التطلع إلى ممارسة فريضة الحج التي من شأنها أن تغسل جميع الذنوب «النشيد التاسع والخمسون».

خاتمة:

وبعد، فهذه كانت قراءة في المتاح حول تطبيق الموريسكيين لشعائر الحج في ضوء الدرس الأنثروبولوجي الديني، وكانت أهم النتائج المتوصل إليها كالتالي:
_ استمر الموريسكيين في الدفاع عن عاداتهم وتقاليدهم الإسلامية، محافظاً عليها حتى لحظة الطرد النهائي، و ذلك في ممارسة الإسلام بشكلٍ سرّي وفقاً لإمكانياته.
_ انتشار نوع من الكتابات التي تعنى بتسجيل الطقوس والتعاليم الإسلامية في الوسط الموريسكي، و التي تعتمد إلى التأكيد على بعض المظاهر الدينية، وتعزيزها في نفوس الموريسكيين باتباع منهج تلقيني تعليمي.

_ لقد كانت الرحلة إلى المشرق بالنسبة للموريسكي، فراراً من الواقع المتردي ورمزاً للانطلاق والتحرّر، الذي لم يعد هناك من سبيل إليه، إلا بالرجوع إلى المنبع الروحي وطلب الغفران (كحلّ بديل)، لمحاولة الاجتثاث الحضاري لآخر بقية مسلمة سعت لمواصلة انتسابها إلى الشرق الإسلامي في إسبانيا الكاثوليكية.

_ و إذا كانت هذه محافظتهم في هذه الأجواء فكيف كانوا لما كانت الأجواء إسلامية محضة. وبذلك بنوا حياة إسلامية فيها أوقات، و لكن كانوا يعالجونها بالإسلام فتذهب و يعودون. فبتبين عظمة الدين الإسلامي، و أن الموريسكيين حافظوا عليه و دماؤهم كانت لهم رخيصة، و أن المسلم يحافظ على دينه و يقيم حياته و يرتقي القمم بهذا الدين.

المراجع:

- 1) الحجري، أحمد بن قاسم. (1987). ناصر الدين على القوم الكافرين (ط.1). الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية 1.
- 2) شيخة، جمعة. (1991). بعض المظاهر الدينية في رحلة عبد الله بن الصباح، ضمن أعمال المؤتمر الثالث حول تطبيق الموريسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية (1492، 1609). منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، تونس.
- 3) طحطح، فاطمة. (1993). الغربية والحنين في الشعر الأندلسي (ط.1). الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة.
- 4) كاردياك، لوي. (1983). الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، المجاهدة الجدلية (1492-1640) (ط.1). (عبد الجليل التميمي، المترجمون)، منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، تونس.
- 5) مدبولي، جلال. (1979). الاجتماع الثقافي (ط1). دار الثقافة للطباعة و النشر، مصر.
- 6) موثون، بوي. (2003). أناشيد الحاج ، رحلة إلى مكة في القرن السادس عشر لماريانو دي بانو إي رواته (ط.1). (عبد الله اجبيلو وعبد الله العمير، المترجمون)، دار الفيصل الثقافية، الرياض.